الباب الأول

الإخلاص والحسبة

« ما صدق اللَّه من أحب الشهرة »

إبراهيم بن أدهم

تتعدد صور التجاوز فى عملية الاحتساب ، فلكم رأينا وسمعنا عن بعض من تصدى لهذا الأمر لا لشىء إلا لأنه يوافق رغائبة فى التسلط والقهر على الناس . فسمعنا عن بعضهم يتغافل عن بعض مراحل الاحتساب إشباعاً لشهوة العنف .. بل إنه كثيرا ما يحزن أن زال المنكر قبل قدومه لأنه حُرم لذة التشفى من صاحب المعصية .. ولو كانت نيته صالحة لكان فرحه بزوال المنكر قبل وصوله أشد إذ أن المحتسب الصادق لا يبغى إلا الخير للناس .

من أجل ذلك كان لزاماً أن يكون للبحث تقدمة نتحدث فيها عن الإخلاص .. وذلك أن الحسبة كغيرها من الطاعات لابد أن يبتغى بها وجه اللّه ، فإذا أمر المحتسب كان أمره للّه وإذا نهى كان نهيه للّه وإذا سكت كان سكوته للّه .

الإخلاص سر بين العبد وربه لا يطّلع عليه إلا اللّه : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ . [غافر : ١٩] .

فهو عبادة أعيت الصالحين وأرهقتهم .

قال سهل التسترى : « عندما سُئل عن أى شىء أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، لأنه شىء ليس لها فيه نصيب » ، وقال سفيان الثورى : « ما عالجت أشد علىّ من نيتى لأنها تتقلب علىّ » .

ولا يقبل اللَّه عملاً إلا أن يكون خالصاً ، وفى الحديث القدسى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » [1] .

ولذلك كان طبيعيا أن يكون الإخلاص هو أول شروط قبول الأعمال ، ولا قيمة لعمل خلا منه يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

إذن .. ما هو الإخلاص ؟

الإخلاص كما عرفه القشيرى هو : « إفراد الحق فى الطاعة بالقصد » .

بمعنى : أن لا يراد بها إلا التقرب للَّه تعالى دون شىء آخر كالتصنع للمخلوقات مثلاً ، أو اكتساب محمدة الناس أو استجلاب مدح المخلوقات أو غير ذلك من الأغراض الدنيوية .

وقال الدقاق : « الإخلاص هو الترقى عن ملاحظة الأشخاص والصدق والتنقى عن مطالعة النفس » .

---

(١) رواه مسلم [٢٩٨٥ / ٤٦] عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه .

علامات الإخلاص :

للإخلاص علامات يعرف بها العبد نفسه ، ويقوّم بها نيته ويصلح بها من قصده ، وقد لخصها « ذو النون » فى ثلاث :-

١ - استواء المدح والذم من العامة .

٢ - نسيان رؤية الأعمال فى الإعمال .

٣ - اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .

فمن قصد اللّه بفعله لا يلتفت إلى مدح المادحين أو ذم الذامين له إنهما عنده سواء ، لا يدفعه ذمّ إلى الإحجام ولا يدفعه مدح إلى الإقدام ، بل إن دافعه الوحيد للإقدام أو الإحجام هو إرضاء اللّه وهو أيضاً عند أدائه لعمله لا يرى عمله ولا يعجب به . بل يراه فى جنب اللّه هيناً وقليلاً ، ثم بعد ذلك لا يطلب لعمله مقابلا دنيويا ، وإنما قصده الأول والأخير ثواب اللّه عز وجل فى الآخرة ، فلا ينظر إلى مغنم دنيوى ماديا كان أو معنويا .

فلا عجب إذن أن يكون الإخلاص من أشد الأشياء على نفوس الصالحين لأنه يحتاج إلى طول مراقبة ويحتاج إلى نفس منتبهة متيقظة خشية أن يتسلل إليها شيطان الرياء ، وكذا يحتاج إلى عزمات صادقة .

قال الشافعى : « وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألا ينسب إلىّ حرف منه » وقال أيضا : « ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظه » .

ما أجمل وما أعظم هذا التجرد الذى يجعل صاحبه فى حبه لهداية الناس وتعلمهم ، يتمنى على الله أن يهتدوا ويتعلموا من علمه وهداه دون أن ينسب إليه من ذلك شىء بين الناس منتظرا ما عند الله الذى يطّلع على الخفايا ، وانظر إليه يحب السداد والرشاد والصواب لمحدثيه ومناظريه متجاهلا رغبة المنافس فى الانتصار ، والغلبة والتميز ، وقال أبو يوسف :

« أريدوا بعلمكم اللّه تعالى فإنى لم أجلس فى مجلس قط أنوى فيه أن اتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أجلس مجلساً قط أنوى فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى افتضح » .

أما الرياء فهو ضد الإخلاص ، وهو أن يكون العمل ليراه الناس كمن قاتل ليقال عنه شجاع وعلّم ليقال عالم ، وقد حذر صلى اللّه عليه وسلم منه فقال : « أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية » [1] .

---

(١) روى أحمد فى المسند [٥ / ٤٢٨] عن محمود بن لبيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أخوف ما أخاف =

فالرياء يبطل العمل ويحبطه فإن اللّه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه وفى الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت

= عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال الرياء يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء .وقال الأرناؤوط إسناده جيد .

فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار [1] .

وقال إبراهيم بن أدهم : « ما صدق الله من أحب الشهرة » .

وبعد .

فهكذا يجب أن يكون ديدن من يتصدى لهذه المهمة العظيمة - التى جعلنا الله بها خير أمة أخرجت للناس - أن يكون الإخلاص باعثه عليها لذلك فإن المحتسب لا يبتغى باحتسابه إلا إرضاء الله عز وجل بهداية الخلائق إلى الله عز وجل ، وتجنب الناس سبل الغواية وكراهية أن يعصى الله تعالى جهاراً نهاراً ، وهو يراعى ذلك فى كل خطوة يخطوها وكل كلمة يتفوه بها .

فهو لا يسعى لإجبار الناس على فعل امتثالاً لأمره أو اتباعاً لهواه ، أو انقياداً لسلطانه وقوته .. بل هو يريد الخير للناس - كل الناس - بتجنيبهم سبل الهلاك ، وهو سبيل المعصية .

وهو لايريد أن يتحدث الناس عن شجاعته وإقدامه ، بل لو كان

---

(١) رواه مسلم [١٩٠٥ / ١٥٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

الهدى عن السكوت سكت ، ولو ظنه الناس جبانا ؛ بل يتعرض للأذى ولا ينتقم بل ويصبر كما نصح فى ذلك لقمان ابنه كما روى القرآن فقال : ﴿ ... وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] .

هو يبذل حسبته فى تواضع من غير ذل ، وفى حزم من غير أنفة أو استعلاء فهو كالطبيب يعالج مرضاه ، أتراه وهو يلتمس لهم الدواء والشفاء يستعلى عليهم ويقسو ، أم أنه يبذل الخير فى حب عباد اللّه ولا شك أنهم سيبادلونه حبا بحب ما شعروا أنه لا يقصد بهم إلا الخير .

وكم رأينا من يتصدون لهذا الأمر من يبادر باستخدام العنف والقوة دون فقه ولا علم ، ويحجم عن الحسبة إن لم يكن فيها عنف ونسى أولئك أن للمسلم حرمة لا يجوز انتهاكها بغير حق .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نكرر أن الرياء محبط لأى عمل وأن العمل الذى يقصد به غير اللّه لن يلقى من اللّه القبول ، ولكن لا يعنى أن نترك العمل خوف الرياء .. وإنما نتحدث فى ذلك لندعوا كل من يعمل للّه أن يصحح نيته حتى لا يقع فى الرياء لا أن يترك العمل مخافة الرياء ، وقد قال القاضى عياض : « إن ترك العمل مخافة الرياء رياء » .

فترك الحسبة إثم والاحتساب مع الرياء إثم ، والمسلم مطالب بترك الإثمين معاً فيصحح نيته ويحتسب .

ولأن الحسبة من العبادات المتعدية التى يستفيد منها المجتمع ككل فلا يصح تركها بدعوى الرياء . وقد قال الشيخ الغزالى فى إحيائه : إن كثيراً من الوعاظ مراءون ، ولكنهم يهدون الناس إلى الخير ويحببونهم فى الإسلام ، ويرغبونهم فى الآخرة ، ولو منعنا هؤلاء الوعاظ من الوعظ من أجل الرياء لفسد حال الناس ، ولما اهتدى الكثيرون إلى اللّه فنتركهم حتى وإن كان عند بعضهم رياء لصالح الناس » .

والعبادات المتعدية بصفة عامة كالدعوة والحسبة هداية مشتركة ، إذ كل من الطرفين يؤثر فى الآخر ، واستمرار الداعية والمحتسب يجعله هادياً ومهتدياً فى نفس الوقت إذ يقول تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ . [العنكبوت : ٦٩] .

وبقى أن نقول : إن اللّه يفتح بالإخلاص قلوبنا غلفاً ، وآذانا صما وأعيننا عمياً ، ألم يقل أسعد بن زرارة رضى اللّه تعالى عنه لمصعب بن عمير حينما أقبل عليهما أسيد بن خضير قبل إسلامه : « هذا سيد من وراءه من قومه فاصدق اللّه فيه » .

وقال رجل لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حينما أرسل إليه قَسْمه من الغزو ما على هذا اتبعتك ، وإنما اتبعتك على أن أرمى بسهم هاهنا - وأشار إلى حلقه - فأموت فأدخل الجنة فقال صلى اللَّه عليه وسلم : « إن تصدق اللَّه يصدقك » (١) .

فمن صدق اللَّه فى عمله صدقه اللَّه تعالى وحقق له ما يصبو إليه من زوال المنكر وهداية الخلائق ، وبناء المجتمع الصالح . فلنصدق اللَّه فى دعوتنا لعل اللَّه أن يصدقنا فى إجابتنا .

---

(١) جزء من حديث رواه النسائى فى المجتبى [٤ / ٦٠ / ١٩٥٣] عن شداد بن الهاد رضى الله تعالى عنه وصححه الألبانى .